

المحاضرة (١٣)

المقال الساخر

أولاً : ما هية المقال الساخر

يعد المقال الساخر أحد أهم الألوان الأدبية وهو شكل فريد يقف في مقابل الابداع الجاد أو التراجيدي وإن كانت المقالة الساخرة تتضمن في بعض الاحيان جزء من التراجيديا لأنها تتحسس الواقع المأساوي للحياة

ويعرف المقال^(*) بالمفهوم الصحفي بأنه : ((حديث يوشك أن يكون عاديا ، يعرض الكاتب فيه على قرائه فكرة ، أو اتجاهها ، كما يعرض لموضوع من الموضوعات ، التي يزجي بها وقت الفراغ مع بعض الجلساء)) فعلى الرغم من أن المقال على نحو عام ليس فناً حدثياً فهو فن معروف في الساحة العربية والغربية إلا أن المقال الساخر يعد فناً حدثياً له أثره على ذائقة المتلقي .

و تعد السخرية نقداً ضاحكاً أو تجريحاً هازئاً يهدف إلى تقديم النقد من ناحية والاضحاك من ناحية أخرى إذ يصور فيها الكاتب بعض الاحداث والشخصيات تصويراً يحمل جانباً من الدعابة والخفة التي تتضمن إشارة إلى مضمون توجيهي تفسيري أو تحفيزي ، فهي كما يراها البعض ترقى بالفكاهة إلى المستوى الأكثر ذكاء ولباقة فتجعل لها معنى وتعطيها قدرة خاصة على ان يكون لها هدف وان تخدم هذا الهدف وأن تحتال لتحقيقه

ولا ادعي أن جلّ المقالات الساخرة هي مقالات هادفة ، إذ إن بعض المقالات لا تأخذ منها سوى الاضحاك المجرد الخالي من أي هدف أو غرض ، وهذا ما دعا العديد من الباحثين للقول :إن السخرية تسير في اتجاهين :أولاً اتجاه ايجابي بناء والآخر اتجاه سلبي هدام والهدم أي مرحلة حتمية في إعادة البناء وأياً كان اتجاهها وشكلها ومناسبتها فأن طعم القوة هو نكهتها الخاصة.

ويعرّف أحد الكتاب الاوربيون السخرية في أنها ((طريقة من طرق التعبير ، يستعمل فيها الشخص ألفاظاً تقلب المعنى إلى عكس ما يقصده المتكلم حقيقة ، وهي صورة من صور الفكاهة تعرض السلوك المعوج والأخطاء التي ان فطن إليها وعرفها فنان موهوب تمام المعرفة ، وأحسن عرضها تكون حينئذ في يده سلاحاً مميتاً)).

ويعزو البعض اسباب نشوء هذا الفن ومن بينهم برجسون Bergeson إلى تعالي شخص ناقص لا يحس ما فيه من نقص ، فيضطر الأديب الساخر إلى أن يرده إلى صوابه أو إلى منطق، فيحاول حينذاك ان يبحث عن عيوبه فيضخمها ويكبرها ويجعل منها بفته أداة للضحك او انه يتولد عن تعالي الشخص الساخر نفسه ، ولشعوره بالغرور ، فهو لا يفتأ ينقد ما في المجتمع من نقائص أو مفارقات ولذلك قال العقاد: ((... فالعبث والغرور بابان من أبواب السخرية ، بل هما جماع أبوابه كافة))

وقد تكون الاسباب ان هناك استعداد مزاجي يكون في الذهن ومهياً دائماً إلى التعريض بالغير والسخرية من الناس مع انتقاء دافع شخصي معين يدفعه إلى ذلك هذا الاختلاف في وضع الاسباب وراء نشوء هذا الفن يؤكد أن السبب يعود للكاتب والغرض من اختيار هذا الأسلوب في طرح نقده ، ولعل النص يشكل الحكم والمؤشر الحقيقي وراء الهدف من انشائه ، وإن كنت أوعز السبب في بحث الكتاب عن اسلوب مغاير للأسلوب الجاد هو التأثير في القارئ

و تتحدد انواع المقالة الساخرة من حيث المضمون والمعالجات بالآتي :

أ- المقالات السياسية

ب-المقالات الاقتصادية

ت-المقالات الاجتماعية

ث-المقالات التاريخية

ج-مقالات النقد الاجتماعي

ح- المقالات الثقافية

وتتميز المقال الساخر بأحد الاساليب التالية

١- المقال الارشادي: وتغلب على هذا النوع من المقالات لغة التوجيه والارشاد ، ويحاول

الكاتب من خلاله توفير اكبر قدر ممكن من المعلومات التوضيحية للوصول الى الهدف

٢- المقال التحريضي : وهو من اكثر المقالات في الصحف الساخرة ،وتتميز المقالات

التحريضية بالتعقيد والتضمين ، اي انها غير بسيطة وان بدت كذلك وتطالب القارئ

باتخاذ موقف من ازاء ظاهرة او حادثة ما ، وتضع القارئ امام الاختيار في اغلب

الاحيان بعد القاء الضوء على الظاهرة المعروضة

٣- المقال التعليمي : مثل هذا المقال لا يتعدى توفير المعلومات للقارئ ، وهو يقترب من

الشكل الاخباري ويكون بسيطا في اسلوبه واضحا في لغته ، وهدفه التثوير والتعليم ، ولا

يناقش الموضوعات الحساسة التي تحتاج الى تفسيرات او تحليلات او اتخاذ قرارات ومواقف .

٤- المقال الناقد : يقترب من المقال التحريضي ويتداخل معه من خلال الاشارة الى الظاهرة التي يتناولها المقال وبيان موقف منها ، ومن ثم الدعوة الى اتخاذ هذا الموقف ، والمقال الناقد مقال ساخر في الوقت نفسه وينحو الى الاستهزاء بالظواهر السلبية وهو يستهوي القارئ اكثر من غير من المقالات ، لأنه يمثل لسان حاله ويفصح عن مكنون قلبه في الاغلب وللأسلوب الساخر في النقد وقع شعر الهجاء في النفوس .

ثانياً: أثر الثقافة المنظورة والمقروءة في توجيه الخطاب النقدي الساخر لـ(مي ابو جلود)

وبما أن النصوص التي سنقف عليها تعتمد النقد نحاول أن نسلط الضوء على المقال الناقد الذي يقترب من المقال التوجيهي أو المفسر أو المقارن وذلك من خلال ما يتخلل المقال من إشارات للظاهرة التي يتناولها المقال وبيان موقفه منها ومن ثم الدعوة إلى اتخاذ أوترك هذا الموقف . والمقال الناقد واحداً من انواع المقال الساخر الذي ينحو إلى الاستهزاء بالظواهر السلبية وهو يستهوي القارئ أكثر من المقالات الاخرى ، لأنه يمثل لسان حاله ويفصح عن مكنون قلبه في الأغلب ، ويرى البعض من عناوين المقالات الساخرة انها تولد شعوراً لدى القارئ بالغرابة مروراً بمضامين مليئة بالفكرة الطريفة والمعالجة المعقولة والطرح الميسر و ذلك كله يمتزج بسخرية مرة في احايين كثيرة ووقفاتها المتسمة بالعمق والموضوعية تضي عليها مسحة من المزحة المليحة والخدشة غير الجارحة للحياء .

وتشكل الثقافة المنظورة مادة اولية في تكوين الخطاب النقدي الساخر للكاتبة "مي ابو جلود" فمن ناحية نجد ما يهيم على ثقافة المشاهد ومن ناحية تدعم مقالاتها بسياقات درامية معروضه على شاشة التلفاز سواء أكان مسرحية أو مسلسل فلم أو برنامج رياضي أو فلكي ، اسهمت بشكل فاعل في تفعيل دور القراءة والتأويل وفي تنشيط التداخل بين الصورة والكتابة . تلك الصورة التي اقتحمت وجدان المشاهد وتحكمت في تكوينه العقلي وفي آرائه.

وتختلف الآراء حول الثقافة التلفزيونية فمنهم من عدها خالية من الثقافة والمعرفة ومنهم من يجدها الحضارة بمعناها الاوسع كما هو رأي العالم البريطاني إدوارد تايلور الذي يعرفها بأنه ((ذلك المركب الكلّي الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والأعراف والقدرات والعادات الأخرى، التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع)) أي أنه عده التلفاز عموماً مؤسسة ثقافية . الا انني اجد ولربما يجده غيري إن التلفزيون بما يسهم في تأسيس الهوية الوطنية الا انه في جوانب اخرى لا يمت للثقافة بصلة لاسيما البرامج التي تشكل مثير سلبي لاسيما لفئة الاطفال والشباب .

ولم تتوقف الكاتبة عند حدود توظيف السياقات المنظورة انما تضمنت نصوصها الاستدعاء الادبي والمعرفي لتكوين البنية اللغوية لمقالاتها .

ففي مقالها (كارت احمر) نجد لغتها تتناص مع اللهجة المصرية ضمن سردها لاسيما حين تسرد عدم معرفتها بقوانين لعبة كرة القدم سوى تشجيعها للمنتخب اثناء لعبه مع المنتديات العربية او العالمية فلا تجد من الكرة سوى (الكرة جوان) وهي مقولة لمعلق مصري ، فتشبه نفسها بالفنان ((احمد حلمي في احد مشاهد افلامه عندما يتابع مع صديق له احدى مباريات منتخب مصر مع نيجيريا وبلغ به عدم الاهتمام ان سأل صديقه قائلاً : (أحنا السود مش كده؟)) فتحاول استذكار المشاهد التي تسيطر على ذاكرتها الصورية التي شاهدها ولم تغدر ذاكرتها ((مشهد (نطحة) زيدان الشهيرة عندما غلت دماؤه العربية ورجح كفة (اخو خيته) على كفة (اللاعب المحترف) في مشهد كلف فرنسا كأس العالم))

فضلا عن الجدل الذي اثير حول مردونا الى جانب الدوري الانكليزي لاسيما مباريات (تشيلسي و (نيوكاسل) و (ليفربول) التي تتابعها بحماسة مفرطة وكل ما كانت تفعله ((هو تنقيل يدي بين فمي وصحن كرزات حجم عائلي وعيني لا تفارق الشاشة !!))

تتخذ الكاتبة من الصورة التلفزيونية لاسيما ما يعرضه التلفاز من العاب كرة القدم المحلية او العربية او العالمية مادة اولية ومشروع مضمر تنتج الدلالة عن طريق التأويل ، اذ تعتمد على مخزونها الثقافي البسيط والمتراكم لتتسجها ضمن سياق نقدي ساخر من تلك التشجيعات لتؤكد الانتماء والهوية وان كان بلعبة كرة القدم

وفي مقال (احنا والقصف جيران) اول سخرية تتمثل في اختيار العنوان الذي يتناص مع عنوان احد البرامج الفنية (احنة والقمر جيران) وهذا ما يوحي ان مسار المقال سيكون له علاقة بجانب فني او اعلامي.

ففي هذا المقال تبدأ الكاتبة بوصف مشاهد الحروب القاسية التي تنتشبت بالذاكرة مهما حاولنا الهروب منها لتتبعها بوصف صوت صافرات الانذار التي تذكرها ((ب-بومة) عملاقة تحتل السماء منذرة بالأسوأ . حتى كنت أود أن اقدم التماس للجهة المعنية بأن يبدأ القصف بدون مقدمات ولا داعي ابداء لصوت ينذرنا لأننا ببساطة لن نقوم بالذهاب إلى الملاجئ . كما أن (الأكشن) و(السيبنس) من مطالبنا الاساسية ولا داعي للتمهيد))

فسخريتها من صافرة الانذار هي تجسيد للخوف المضاعف الذي يتولد في قلوب الاطفال والكبار وتصويرها للاستعداد النفسي لتقبل الموت بسخرية واضحة من الواقع ، وما ذكرها للجهات المعنية الى اشارته لسخريتها من السلطة وقراراتها التي لم تراع مصائر الناس ومكانهم النفسة ازاء تلك القرارات

فالكاتبة تتخذ من اللغة الساخرة وسيلة لتقديم نقد لواقع الحرب ومعاناة الناس لاسيما في حرب ١٩٩١م التي حلت بالعراق وهي كارثة انسانية حدثت جراءها العديد من الازمات ومنها ازمة الطعام فتسميها بمعضلة الصمون فتقول : ((من المهارات التي اكتسبناها مجبرين ، هي فن صنع الصمون في المنزل ، فبسبب أزمة الخبز وتوقف عمل المخازن ، كنا نستلم حصتنا من الطحين ومطلوب منا ان نتصرف ونحوله (بقدره قادر) مع شيء من الماء والخميرة الى صمون أو على الأقل شيء شبيه به. النتيجة كانت اشد ايلاما من الحرب نفسها . فما أن تقع عينك عليه حتى تتخيل انه قد نجا للتو من صاروخ ما فتحول إلى شكل هندسي لا يمت بصلة للمربع أو للدائرة او المستطيل ، اما لونه فأتحدى أي اثنين أن يتفقوا بشأنه كما أنه صالح للأكل خلال الدقيقتين الاوليتين بعد (شمره) من الصوبة . اما عملية خبزه فتتطلب مني التضرع لله والدعاء كي يلطف في العجينة وينفخها ولو (نفخة كذابة)))

وتعتمد مي كذلك في مقالها على توظيف المرجعيات الثقافية وتضمينها ضمن أطر ساخرة ، وذلك في نسيج سردي تصف فيه تشبث الشخصية بأمرها جراء الخوف من القصف وكيف تنشبث بها كقطعة اليفة ((كانت امي تردد على مسمعي بيت شعري وهو (أبني تي لا تجزعي ..كل الأنام الى ذهاب) ولا أعرف كيف انها تجاهلت كل التراث العربي المتفائل وبقيت متشبثة بهذا البيت الكئيب المحبط . صحيح ان الشاعر (ابن الرومي) لم يكذب او يبالغ ، لكننا نبحت عن فسحة امل لتكون فاصلا بين حلقات مسلسل الموت المستمر ، بعد ان عاثبتنا على اختياره غير الموفق ، قررت امي ان تستخدم (استرنا يا ستار) لتكون بمثابة تعويذة الحرب جعلتني اتحسر واشتاق لـ(ابن الرومي))) هنا تستدعي الكاتبة الموروث الادبي لتستضيفه في نصها المقال من خلال مزجه في خطاب الشخصية الموجه لتحقيق وظائف دلالية تتمثل بالتشاؤم والقلق من المستقبل ومن المصير المجهول ، وأجد إن مي ابو جلود اختصرت معاناة تلك الفترة بتلك الصفحات التي تضمن السخرية المحزنة

وفي مقال (اضحك ..تطلع الصورة حلوة) لربما يجد فيها القارئ مجرد مقال للضحك في حين من يقرأها يتمتع يجد فيها لذة من حيث استخدام اللغة ومن حيث الموضوع الذي يتضمن قضية الرتابة ، فمن ناحية : ((يصبح تصفح الالبومات القديمة أشبه بفاصل استعراضى مبهج وسط رتابة الحياة وقتامتها ، ولا تكمن الطرافة في فيروس الاميرة النائمة الذي يصيبيني عند التقاط صورة ما فحسب بل في تسريحات الشعر الفريدة والملابس التي تجعلني اشعر وكأنني ركبت آلة الزمن وعدت إلى الوراء .. إلى حيث زمن الطرايش والخُمُر...)) ومن ناحية اخرى تطرح قضية الانانية والايثار ((ففي دراسة نفسية قرأتها قيل إن أنانية الإنسان تتجلى في أبهى صورها عندما يشاهد صورة له مع آخرين فحالما يمسك الصورة يركز على نفسه أولا قبل أن يطالع كيف بدا

الجميع ويبقى تقييم (خوش صورة أو مو خوش صورة) متعلقاً بكيف نبدو فيها .. الافضل أن ننسى انفسنا قليلا ونركز على الآخرين ، ف(الايثار) هنا يصبح علاجاً نفسياً وليس تضحية ، ولا تنسوا أن تضحكوا حتى تطلع الصورة حلوة .. حتى لو مغمضين))

توظف الكاتبة هنا المرجعيات المعرفية لاسيما طروحات علم النفس في دعم رؤيتها لموضوع الايثار والانانية ، والجميل في هذه المقال والمقالات الأخرى اننا نجد الكاتبة تتخذ من ذاتها المحور الذي تسخر منه وكأنها تحاول ان تخرج من دائرة الاتهام التي وضع فيه كتاب المقالات الساخرة لاسيما الانتقاص من الآخرين وكشف سلبياتهم او التكبر والغرور الذي يرافق الكتاب الساخرين _كما ذكرنا-

(*) وبالرغم من حداثة هذا الفن وانتشاره كأحد الفنون الصحفية ، لكن الدراسة الاستقرائية والتاريخية من تتبع هذا الفن تبين بوضوح أن العرب قد عرفوه وكتبوه وكان لهم فيه باع طويل . فالمقالة لها جذورها في الادب العربي الاسلامي القديم ، وهناك من يرى أنها تمتد حتى القرن الثاني الهجري ، إذ كانت هناك بعض الرسائل التي تتناول موضوعاً واحداً وتبحثه باختصار ، كرسالة الحسن البصري في الامام العادل ، ورسالة عبد الحميد الكاتب في وصف الإخاء ، ورسائل الجاحظ ، ينظر: رضا علوي سيد أحمد ، فن الكتابة ، كيف تصبح كاتباً ناجحاً ، الطبعة الاولى ، دار البيان العربي ، ١٩٩٣ ، بيروت ، ص ١٦٦ .